

عودة إلى نعمة الأستاذ علي ط

أرواح وأشباح

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

- ٢ -

فرض الشاعر بمخيلته القادرة أن الأرواح المجردة تتكلم ،
في السماء ، عن البشر وغيرهم في الأرض . وهذا يُعتبر فرضاً
فنياً يزيد في فهم القارئ ، وضوح الفرق ، في تكافؤ الروح
والجسد ، بين زرعها العلوية السماوية وزرعته السفلية الأرضية .
وهو أيضاً خيال أدخل في الصنيع البديع عنصراً مُخففاً من
عناصر الملاحم : لأن إيجاد الخوارق فيها - بإدخال كائنات
فاتكة قوى الطبيعة في حوادثها - كان أمراً جوهرياً ، ثم
أصبحت الخوارق مُحسّنة اختيارياً يراعى فيه احتمال الذوق
المصرى . وكأن هذا الخيال اتفاق أدبي مضمّن بين الشاعر
وقرائه ، كالاتفاق الروائي^(١) الضمني في الروايات ، بين المؤلف
والنظارة : كأنهم اتفقوا معه على التسليم بالفرض الأول في روايته ،

Convention théâtrale (١)

كلمة إنصاف

كان المويلحي فيما يظهر مفتوراً على حاسة العدل ، وهي
حاسة تعيل من الوجهة الشكلية إلى تجسيم العيوب ، وتفعل أو
تتفائل عن مكافأة من يُتهمون وهم أبرياء
أعظم ما يجازى به التهم البريء هو الحكم بأنه بريء ، ولم
نسمع أن متهماً بريئاً جازاء قاضيه بجائزة تُذهب عنه آفك المرجفين
لا رجاء في الدنيا ولا أمل في الناس ، إن لم يأت يوم يكون
فيه حكم البراءة بشيراً بالرفاهية والرخاء
فإن المويلحي من هذه المعاني ؟

ظلمه معاصروه فظلم معاصريه ، والظلم بالظلم بنى وعدوان
كان المويلحي ابن زمانه ، فلم يهتد إلى فكرة العدل الصحيح ،
ولو أنه عقل لأدرك أن الظالم لا يبنى له الوقوف في صفوف الظالمين

ليضحكهم أو ييكرهم بما بنى عليه من مواقف ، وبما أنطق فيها
أبطاله من كلام

واختار الشاعر من أسماء الأساطير الإغريقية أسماء لأبطاله ؛
وهو اختيار موفق لما تشير إليه هذه الأسماء - بتداعي
المعاني في ذهن القارئ - من أن القصص يصف غريزة
الإنسان وأخلاقه من ماض بعيد ؛ ولأن أسماء أهل الفنون
أليق بلحمة فيها كلام على الفنان وعلاقته بالمرأة . وفي اختيار
تلك الأسماء القديمة مزية أخرى : فقد حسن وجودها في هذه
الملحمة من حيث أن العتيق أشعر من الحديث ، كالسيف ما زال
أحب في الشعر من المدفع . فاظنك بمن لم يجد أسماء عربية تجمع
مزايا تلك الأسماء الإغريقية ، وتحسّن حسنهما إن حلت محلها
في الملحمة ، فودّ لو أن الشاعر تبدّل بها أرقاماً في شعره ولم
يضيّع دلالتها على شخصيات معروفة في الأساطير أو التاريخ ؛
واتهم شاعرنا الغريزة في الأشباح ، وبرأ الأرواح المجردة .
فالأرواح ذوات الأسماء الإغريقية تتكلم في العالم العلوي طليقة
من قيود أشباحها ، تتكلم قبيل بمئها بما يصف سجايا الفنانين
الآدميين وغرائز الإنسان ؛ وفي كلامها أنها حين تهبط
في أشباحها إلى الأرض ، سيمروها ما عرا أرواح البشر :
لنا مثلهم في غد غشية إذا ما حللنا رحاب الثرى

لو كان للمويلحي نصيب من الروحانية الصوفية لأدرك أن
اضطراب المجتمع المصري عقوبة فرضها التعرّيب الذي توارثته
أجيال عن أجيال ، وهجر عن طبه الدهر والزمان
ونحن في مصر ، وبمصر أمة آذنت وأوذيت ، وقالت
وقولت ، فهي إلى الأبد في عراك وقتال وصيال
ليت المويلحي أدرك هذه المعاني ، وليته فهم أننا نخرج
تاريخاً له في ضمير الإنسانية جذور وجذوع وفروع
لو عَقَلَ المويلحي لقال في مصر كلاماً غير الذي قال
ولكنه معذور ، لأن « العدل الرسمي » ساقه إلى أن يقول
ما يقول

وفي الكلمة الآتية فصل القول في ذلك الأديب الفنان .

نكي مبارك

وإذا قال نافذ إن لتلك الأرواح أسماء تلازمها دلالاتها على شخصيات أمحايها المينة في الخرافات أو الأساطير أو في التاريخ ، وإن الشاعر أهمل في قصيدته هذه الدلالات — لأنه لم يدرس الأساطير الإغريقية كما يجب ولم يتفقه اليونانيات ، فإن هذا القول اللطيف ليس يمنع أنها أسماء أناس كانوا من البشر ، ما عدا هرميس (هرمس) ، ولم يكونوا من أنصاف الآلهة ولا من الآلهة اليونانيين الذين خلقهم بشر ؛ ولا يمنع أن منطق هذه التحفة يقتضى ألا تظل أرواحهم في السماء على حالها في حياتهم الأرضية النابرة من الاتقياد الكلي للفرزة والشهوات الحسية .

ومع أن هذه الملحمة — في رأينا — إنسانية لا إغريقية ، فإن كلام أبطالها متصل بدلالة أسمائهم المعروفة . فهرميس الذي يقود الأرواح ، في الأساطير ، يقود هنا روح الشاعر . وروح بليتييس ، البريئة في السماء ، لا تكون بحالها يوم كانت حيصة في شبحها على الأرض ، أو بحالها يوم تبث ؛ لكن تتم ذكريات من ماضيها الأرضي وماضي سافو في مثل قولها :

حت رقة الجنس ربانه فليس بهي حاجة للرجال
لكل اثنتين هوى واحد تلاقى على سرته مهجتان
وفي إجابة تاييس :

حديثك إن لم يكن بدعة فلم جرى في قديم الزمان
وصيحة مخففة في الهوى معريدة الروح سكرى اللسان
أما غضب بليتييس وصاحبيتها من أن روح الشاعر مرّ
أمامهن وراهن فأعرض عنهن « ولم يحسب السماء » ، فهو غضب
ليس يُمد من « كبرياء النساء » في شيء ، والكبرياء عظمة
وتجبر ، وإنما هذا الغضب ثورة على إهانة . وإن امرأة ما من أقل
النساء عفة وأكثرهن استهتاراً واستسلاماً للشهوات ، وأنهما كآ
في اللذات ، لتغضب من تغافل رجل عنها ؛ وقد تنظّاهر
بالإعراض عن رجل لتوقعه في شركها . وروح تاييس ألهمتها
الذكريات الأرضية اعتراضها على صاحبيتها اعتراضاً يشف عن
حقيقة أمرهن جميعاً بقولها في الرجال :

إذا خلت الأرض من طيرهم فن ذا يحسب الجمال القسم
ومن يطلق الحب من وكره على خطرات الفتاة الرخيم

وفيم ترقص هذا الجناح ونصقله بينات النسيم
بقيت سافو (سقون) ؛ فهل كانت حسية بالمعنى الشائع ؟
أليس في مؤلفات الذين استوعبوا دراسة اليونانيات رأى آخر
أوفى تحقيقاً ؟ بلى ، وهذه هي خلاصته :

إن سافو^(١) أهتمت في أخلاقها ، لكن يبدو أن أخلاقها
كانت سليمة . ويجب أن نلاحظ أنها من قوم إوليبيين^(٢) ،
كان نساؤهم كنساء الدوريين^(٣) أكثر حرية من نساء
الإيونيين^(٤) الذين كانوا يحجروهن في الحرم : فإن هذه المفارقة
تدل على مؤلفي الملحمة الأثينيين من دعايات سيئة القصد ، وتدل
تلك الأقاويل المنحولة في سيرة سافو . ويجب أيضاً ألا يغرب
عن الخاطر أن الإغريق في ذلك العهد ما كانوا وصلوا إلى معرفة
التمييز في الأدب بين الهوى الحسى والهوى العذرى ؛ ولكن لاصلة
بين اللذة الحسية التي يصفها الشعر المنسوب خطأ إلى أناكريبون^(٥)
وبين لالعج الغرام الذي تعبّر عنه سافو في القليل الموجود
من شعرها

وبالنظر إلى هذا الرأي ، إن لم يكن بالنظر إلى أن الملحمة
إنسانية لا إغريقية ، وأن أحوال أبطالها تختلف في السماء عنها
في الأرض ، جاز لشاعرنا أن يجعل روح سافو في السماء أهدأ منها
في تلك القصة المأثورة عنها ، ولا غرابة في أن تقول :

رأيت الرجولة كل الجمال هو الرجل الفرد في الزدحم
ويحدو العذارى إلى دارهن حي الخطى موسى التقدم

(١) شعرها يقع بين ٦٣٠ و ٥٧٠ ق . م

(٢) Les Eoliens : الأيوليون هم سكان إيولى Eolie ، وهي قطر
قديم من آسية الصغرى ، كان بين إقليم في شماله ، عاصمته طروادة Troie ،
وبين إقليم في الجنوب كان بيتدي من خليج أزميز ويسمى إيوني Ionie
وهؤلاء الأيوليون قبيلة إغريقية طردها الدوريون من شبه جزيرة
البيلوپونيز Péloponnèse فاستوطنوا إيولى

(٣) Les Doriens : الدوريون هم سكان الدوريد La Doride ،
وهي قطر قديم في جنوب نبالا La Thessalie وقد فصحوا البيلوپونيز
وأسسوا فيه إسبرطة

(٤) Les Ioniens : الأيونيون هم سكان إيوني الآنف ذكرها

(٥) Anacréon : شاعر إغريقي (٦٠٠ — ٤٧٨ ق . م)
نسب إليه خطأ شعر غنائى قيل بعد عهده بزمان طويل وفيه مدح اللذة
الحسية .

السابقة ، تقرير واجب ، إذ ليس يجوز التساهل في فهم المادة التي صدر عنها خيال الشاعر

ما القول إذن في البيانات النظرية الوجيزة الواردة قبل القصيدة عن أصحاب تلك الأسماء ؟

الجواب قريب : فهي في نظرنا بيانات تذكر بأنهم كانوا من أهل الفنون ، ليكون كلام أرواحهم في الفن وأهله ، والقلب وشأنه ، والإنسان وغرائزه وخلاله ، أحسن وفقاً في النفس . وجمال أيها القارئ الكريم ألا تخدع نفسك بهذه البيانات . أما الذين يتبحرون في العلم بالأساطير واليونانيات فقد يأخذهم الوجد بها حتى يصبح هيرام التثبث بدلالة تلك الأسماء كلها صادقهم في أدب أي كان وجهه

والبيانات النظرية الأخرى أيضاً تذكر بمضمونها لكي يسهل فهم الإشارة في الملحمة إلى السامري وموسى ، ومانا وهاروى ، وغير ذلك ؛ وذكر آدم وحواء في القصيدة فيه كذلك إشارة ضمنية إلى براءة الروح لبراءتهما قبل الخطيئة في الجنة ، وهو رمز إلى الرجل والمرأة وخطاياهما في كفاح الأرواح والأشباح البشرية ، ولم يذكرنا لإيراد قصتهما المعروفة الحبيسة في المعتقدات الدينية (البقية في العدد القادم) محمد نور محمد السحرار

كلا ، إن الشاعر لم يهمل تلك الدلالات التي تغلو بإيجاب مراعاتها المثلون في الإعجاب بمبلغ دراستهم لليونانيات .

فأولئك حوريات في السماء غضبن على الشاعر فاتهمه في غريزته وفنه . لكن هرميس إله البلاغة ومبتكر الفنون عطفهن معتدراً عنه بأنه رآهن في قلبه ، وحيّاً بقلبه وأطبق ناظره على ما فيه ضناً بلألاء جمالهن . ودنا منهن روح الشاعر في شبحه قبيل بعثن فأمجبن بالرجل : استلمت بليتيس صدره وجبينه مستجماً سائلة : أرين حاً الأرض هذا الجبين ؟ فأجاب هرميس : دعى طيفه وانظري روحه . فسألت متجاهلة : هل الرجل الروح ؟ فأجبت تاييس : إنه يحيا وعينان ! فقالت سافو : ما في الرجال سوى كل أصيد سبط القوام :

ذراعاه تستدرجان الخصور وفي شفثيه حديث الغرام فصاح هرميس مسيئاً بهن الظن : تترهت عالمي ! أينظن فيك روح بهذا الكلم ! لقد سبي السحر أجمل أرواح السماء ! فقال صوت السماء : بل البعث آذنهن الغداة ، وهي الآدمية طافت بهن ، فلا تلحنن ولا تلم . وغضب الحوريات حيلة من ناظم الملحمة جعلتهن يُظهرن شرفهن أو سموهن الروحاني ، وينمين على الفنان غريزته وأثرها في فنه أو انحطاطه الجسدي ؛ وهي حيلة أثبتت مهارة الشاعر الفنية ، ولا سيما أنه نجح بها أولاً في شغلن بمحاورة وصفت ما أراد . شغلن حديث الفن في السماء ، وكان الفن يشغلن في حياتهن الأرضية . وغضبن على الفنان الرجل ، لكن ما لبث أن رضين عنه وتهاقن عليه في نزعة إلى الحسيات ، فلم تضيع الصلة بينهما وبين تلك الدلالات العزيزة ، وبدا طبعهن في حالي السخط والرضى ، وأثرهما واحد في كل البشر وإن اختلفت درجاته ، فهو لا يضر وحدة الشخصية في ذوات الأسماء الإغريقية ، لأنهن في الحقيقة يمثلن النساء لا الملائكة

وعندنا أن الشاعر لم يتخذ من الأساطير مادة شعره ، وإن اختار منها أسماء ، وإنما نحت شعره كله من صميم الحياة الإنسانية بالروح والجسد والفرزة جميعاً على ما يتبين في صنيعه ، فلم يكن عليه أن يتفقد بدلالة تلك الأسماء

وتقرير هذه الحقيقة ، بعد ما تقدم ذكره هنا وفي المقالة

للشاعر علي محمود طه

أرواح وأشباح

ملحمة رائعة من شعر الأساطير

حوار الجسد والروح ، حديث الفن والحب

بين المرأة والرجل

لون جديد في الشعر العربي الحديث

أنتن ما أخرجه فن الطباعة

ورق برشمان النادر في حجم كبير خاص

صور رمزية وغلاف مصور بالألوان

لم يره من هذا المبراه غير نسخ معدودة

يطلب من جميع المكتبات في مصر والشرق العربي

ثمان النسخة ٢٥ قرشاً هذا مناريف البريد